الفصل الرابع

الوجـــود والعـــدم

ما ثم إلا وجود وعدم . ولكن العدم غير معدوم ، بل هو حضرة لها حقائقها كما أن الوجود (الله) حضرة لها حقائقها . . فالعدم حضرة سالبة بمثل ما أن الوجود حضرة موجبة . . والعدم حضرة « قابلة » بمثل ما أن الوجود حضرة « فاعلة » . . وهما أشبه بالظلمة والنور والمرآة والشمس التى تبدو فيها . . وهى تشبيهات قاصرة عاجزة ولكننا لا نجد غيرها .

وكل حقيقة فى العدم هى قابلية . . وهى عين ثابتة قديمة فى الأزل . . وهى ذات لها خصوص وصف هو الافتقار الكامل والاحتياج المطلق وعدم القدرة على شىء . . وهى حقيقة غير مجعولة (غير مخلوقة) فهى قديمة أزلية وتشخصها أزلى . . فكل ذات تحمل معها خصائصها ومكنونها منذ الأزل .

وتتفاوت الحقائق (الذوات) فى الجانب السلبى العدمى كما تتفاوت درجات البرودة سلباً تحت الصفر . . وهو مثال تقريبى لأشياء لا يمكن تقريبها ولا تمثيلها بعبارات وكلمات فنحن فى منطقة من الأسرار النهائية لا يجلوها اجتهاد فكر ولا يجيب عليها إلا كشف إلهى وعلم لدنى . .

ومن الحقائق فى العدم ما لا يطلب الظهور ولا الوجود وتلك الحقائق تبقى عدماً مطلقاً ولا يجعل الله لاسمه الظاهر سبيلا إليها .

ومن الحقائق فى العدم ما يتوق إلى الظهور والوجود وما يتطلع إلى الله حين يتجلى عليه طالباً أن يرحمه بإيجاده وتلك الحقائق أو الذوات يخرجها الله من العدم إلى الإمكان ويجعلها محلا لولاية أسمائه الحسنى وصفاته وتلك هى شئون الملك والملكوت . . وهذا هو عالمنا . . وهذه الذوات هى أنا وأنت ونحن.

وكل ذات منا تحمل حقيقتها معها وتحمل خصوص وصفها معها ولا يجعل الله لقدراته سبيلا إليها إلا من حيث إعطائها لبسة الوجود الخارجية وإعانتها على الفعل بحسب خصوص نياتها . .

ولا يقلب الله حقيقة أحد ولا يقهر أحداً على غير طبيعته (فالحقائق كما قلنا قديمة أزلية غير مجعولة) .

ولو قلنا إن الله يجعلنى قهراً كذا وكذا ففى هذا الكلام نفى لذاتى ونفى لحقيقتى . . وقلب الحقائق مستحيل وإلا كانت الحقائق ظواهر لا حقائق وهذا نفى للحكمة التى أقامها الله ناموساً لكل شىء . .

ثم إن الجعل والقهر هو نفى للإمكان وقد أراد الله فى ناموسه أن يكون كل منا ذاتاً قابلة للاحتمالات من البداية . . وإمكانية بحتة مفتوحة لجميع الاختيارات .

ولو كان « القابل » مجعولا لما كان قابلا ولضرب عليه التحديد من بدايته ولا نتفت المحاسبة والمساءلة . . كما أننا إذا نفينا « الذات » جعلنا من المساءلة عبثاً .

ونسائل من . . ؟

ونحاسب من . . ؟ ؟

والأمر مجعول ولا إمكان لوجه آخر ولا قابلية لاحتمالات ولا حقيقة للعبد ، وإنما الله هو الذى ينوى وهو الذى يضمر وهو الذى يفعل . .

إنما تصحيح الأمر أن ذات العبد حقيقة وأنها إمكان بحت قابل لجميع الاحتمالات . . وأن العبد ينوى ويضمر ويتوجه بالإرادة إلى حيثما تسول له نفسه ولكنه لا يستطيع أن يفعل فى عالم المادة والواقع إلا بمعونة الله وقيوميته سواء علم بذلك أم جهل . . والله بقيوميته وقدرته يخرج نية العبد وسريرته إلى عالم التحقيق ، فيعاونه على تحقيقها على حالها خيراً كانت أم شراً دونما تدخل إلا إذا أراد العبد تدخل الله وطلبه باللسان أو القلب أو الدعاء . . والله لا يغير من عبـده إلا إذا طلب العبد أن يتغير وأسلم نفسه وذاته راضياً مختاراً محباً وهذا هو الموت قبل الموت أو الفناء بين يدى الرب وخلع الاختيار وخلع الإرادة الصغرى تسليماً وإيماناً وتصديقاً وثقة بالإرادة الكبرى . . وهذا هو المشى إلى الله على الصراط والخروج من الهلاك إلى النجاة .

وحينما نقول إن هذه الذوات الممكنة كانت فى علم الله فيجب أن نفهم أن علم الله بهذه الذوات هو ما تعطيه هى أنفسها من معلومات وأن الله لا يتصرف فى القابل (الذات القابلة) إلا على ما هى عليه تلك الذات القابلة وإلا كان قالباً للحقائق وواضعاً للشىء فى غير موضعه وهو الظلم . . تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً . . فهذه الذوات إذن معلومة بما هى عليه ومحكومة وحاكمة بحقائقها . . هكذا اقتضت

حكمة الله . . ولا يصح أن نُجوِّز على الله ما ينافى الحكمة . . فالله قضى فى أزله أن يستعمل كلا على شاكلته وأن يوقف كلا عند استحقاقه فى سابقته وألا يقهر أحداً على غير طبعه .

« قُلْ كلٌّ يَعْملُ عَلى شاكِلَتِه » . (الإسراء : ٨٤)

فهو لم يجعل إبليس إبليساً ولكن كبرياء هذه النفس الملازم لها منذ الأزل هو الذى رشحها لهذا المنصب الإبليسى .

وهكذا يقيم الله كل نفس فى مكانها بحسب خصوص وصفها القديم الأزلى .

وهذا مقتضى الحكمة الإلهية . . لا جبر من رب على عبد ولا جبر من عبد على رب .

ولكن المواقف تتغير إذا ألقى العبد باختياره طوعاً وأسلم نفسه إلى ربه وطلب بلسانه وقلبه وجوارحه أن يزكيه ربه ويطهره ويغيره .

يقول الله لعبده :

(ألق الاختيار ألق المساءلة البتة) .

[المواقف والمخاطبات – النفرى]

فهنا أعلى مستوى توحيد بين العبد وربه على مستوى الذات حباً واختياراً وتسليماً . . فقد أعطى العبد لربه أثمن ما يملك « حقيقته » وتلك ذروة المعرفة التى يكافئها الله بأعلى تكريم فيقول الله عن هؤلاء العباد . . هؤلاء هم أهلى وخاصتى وخلانى .

وهؤلاء العباد تسقط عنهم المساءلة لأنهم أسقطوا عن أنفسهم الاختيار والتدبير وارتضوا اختيار الله لهم بتمام التوكل .

والكون بهذا المعنى مجموعة من القوابل السالبة والذوات الثابتة فى العدم أخرجها الله إلى الوجود وألبسها حللا من أسمائه وصفاته . . وهى رؤية تصدق عليها الشطحة التى قالها ابن عربى . . بأن هذا العالم غيب لم يظهر قط ، والحق تعالى هو الظاهر ما غاب قط والناس فى هذه المسألة على عكس الصواب فيقولون العالم ظاهر والله غيب فهم بهذا الاعتبار كلهم عبيد « السوى » والغير .

هذا هو خلاصة ما قاله العارفون فى مسألة العدم ، أما الوجود (الله) فقد سبق أن قلنا إنه حضرة أحدية ذاتية فى غيب الغيب . . وجميع الأسماء الإلهية والصفات الإلهية مما نعلم ومما لا نعلم مجملة كامنة فى هذه الذات الغيبية كمون الشجرة فى النواة . . (وذلك الوجود الغيبى الأعلى هو عالم الجبروت) .

ثم إن لهذه الذات تنزلا أو تجلياً فتظهر بأسمائها وصفاتها فى (عالم الملكوت) فى حضرة أسمائية صفاتية تمد الممكنات بحلية الوجود ثم ترعاها بالتربية والعناية وتلك هى حضرة الربوبية فى (عالم الملك) الذى نعيشه نحن وسائر المخلوقات التى تحيا بفضل الله ومدده .

وبالرغم من هذه الكثرة من الأسماء الإلهية والكثرة من التجليات والتنزلات والظهورات والحضرات يجب ألا ننسى لحظة أن الظاهر فيها كلها واحد والمسمى واحد والسارى فى جميعها واحد وتلك هى أحدية الجمع (وهو الشعور دائماً بأنك مجموع على الله الأحد برغم الكثرة الظاهرة وأن هذه الأحدية سارية فيك) ويقتضى الفهم الصحيح للألوهية ألا نقف عند هذه الأحدية حتى لا يأخذ الواحد منا طائف

الجنون والذهول فيقول فى لحظة (أنا الله) وإنما يجب أن نضم إلى هذا الشعور بالجمع شعوراً آخر مبايناً « بالفرق » فيشعر الواحد منا على الدوام بأنه حقيقة مفارقة فى العدم وأنه قائم متحرك ناطق موجود بفضل الله لا بقدرة من ذاته . . وفى رؤية هذين الضدين رؤية واحدة (الجمع والفرق) الفهم الصحيح للألوهية . . فالعارف يُشَبِّهْ ويُنَزِّه فى ذات الوقت .

« لَيْسَ كمثْلِهِ شَيْءٌ وهو السَّميعُ البصيرُ » .

(الشورى : ١١)

تنزيه وتشبيه معاً فهو ليس كمثله شيء وهو سميع بصير فى ذات الوقت .

« وهُوَ مَعَكم أينَما كُنْتم » . (الحديد : ٤)

آية صريحة دالة على « الجمع » .

« عَالِمُ الْغَيْبِ والشَّهادَةِ الكَبِيرُ المتَعال » .

(الرعد : ٩)

آية أخرى صريحة دالة على « الفرق » وعلى عزة الله ورفعته وعلوه على كل مخلوقاته .

وهذه الرؤية الدقيقة الشريفة « أحدية الجمع والفرق » هى ذروة ما يبلغه العارفون فى أمر التوحيد . . فهم يرون الوحدة فى الكثرة كما يرون الكثرة فى الوحدة فى ذات الوقت . . فالله حاضر فى جميع الموجودات . . كما أن جميع الموجودات كائنة فى علمه . . ولكنه غيرها جميعاً ومتعال عليها جميعاً .

ويروى العارف الموحد ما حدث فى أمر الخلق بتلك اللغة الرمزية الإشارية العالية فيقول :

هو الله الذى لا إله إلا هو الوجود الغيب ونحن العدم الغيب فظهر سلطان التجلى من الوجود الغيب على العدم الغيب فظهر شهود الحق الغيب (وهى المخلوقات كافة) توحده بلا جحود ولا ريب . . ظهور دلالة وتعريف لا حلول وتكييف .

والوجود والعدم كانا من البداية كالحقيقة والمرآة . . الحقيقة فاعلة والمرآة قابلة ناقلة ولكنها سالبة لا تضيف من عندها شيئاً ولا تقدر بذاتها على شىء سوى أن يظهر فيها الأمر على ما هو عليه

ولكن الأمر فى حقيقته كنز من الغنى اللانهائى ومن هنا جاء التعدد بسبب اختلاف القابليات فى الذوات الثابتة فى العدم كل منها يأخذ من ثراء الحق تعالى على قدر استعداده (كما تخرج ألوان سبعة من النور الأبيض بسبب اختلاف زوايا الانكسار فى منشور زجاجى وكلها كانت ثروة من الأمواج الطيفية كامنة فى اللون الأبيض) .

وما الوجه إلا واحد غير أنه
إذا أنت عددت المرايا تعددا

فجميع الحضرات الأسمائية والحضرات الصفاتية هى حضرات مفادة من الذات إلى القوابل المتعددة فى العدم كل يقبل منها بحسب استعداده . . ولكن الذات متعالية على الصفات متعالية على الأسماء لا تحيط بها صفة ولا يحيط بها اسم .

ويأتى المدد من هذه الحضرات إلى أعيان الممكنات . . فيمدها

الحق تعالى من « النفس الرحمانى » بالوجود حتى يرجح وجودها على عدمها (وعدمها هو مقتضى ذاتها الأصلية بدون موجدها) .

وأما الخلق الجديد فيكون بإيصال مدد الجود من نفس الرحمن إلى كل ذات ممكنة فى العدم وإفاضة هذا الجود عليها على التوالى ليكون لها فى كل آن تخلق جديد لاختلاف نسب الوجود عليها مع الآنات . . مع استمرار عدمها فى ذاتها . . وهى مسألة يتعذر فهمها إلا تذوقاً .

فحقائق المخلوقات وذواتها الأصلية باقية على عدمها الأصلى برغم توالى صور الوجود عليها وتعينها آناً بعد آن ودخولها فى شأن بعد شأن وحال بعد حال . . وهذا أمر يدركه العارف ذوقاً (إنه ميت حى فى نفس الوقت) .

يقول الله لرسوله :

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُم مَيِّتُون » .

(الزمر : ٣٠)

يقول له ذلك وهو فى ذروة الحياة والفعل تذكيراً له بتلك العين العدمية التى جاء منها هو وكل المخلوقات .

ومن جملة كمالات الله أنه يحيي ويميت وأن له القدرة على إمداد كل نفس قابلة على قدر قبولها واستعدادها من مدد الوجود والحياة .

« وآتاكُمْ مِنْ كلِّ ما سألْتُمُوه » .

(إبراهيم : ٣٤)

وكل ذات ممكنة فى العدم تسأله بلسان الحال أن يرحمها بإيجادها فيوجدها ويهديها إلى معرفته .

« ربُّنا الَّذِى أعْطَى كُلَّ شَىءٍ خلْقَه ثُمَّ هَدَى » .

(طه : ٥٠)

« إنَّ علينَا لَلْهُدى.وإن لنا للآخِرَة والأُولَى » .

(الليل : ١٢ ، ١٣)

وهو يعطى كل نفس خلقها وقالبها الذى تستحقه ثم يهديها ويواصل إمدادها ويجدد خلقها آنا بعد آن .

« ما مِن دابَّةٍ إلاَّ هُو آخذٌ بِناصِيَتِها » .

(هود : ٥٦)

هكذا تستمر علاقة ربنا بمخلوقاته وتستمر عنايته بها فيمدها جميعاً بأنفاسه الرحمانية . . ولو تخلى عنها لعادت عدماً كما كانت وما زالت . . فكل منا لا يملك من نفسه إلا العدم . . إنما نتحرك ونسمع ونبصر ونعقل بنور الله ومدده .

وكل ما سوى الله قائم بالله . . فكل العباد والخلق وكل ما هو حادث هو عدم منفى على التحقيق ولكنه ثابت وقائم بالله وبتجلى الحق تعالى مع الآنات بوجهه فى الصور فيكون « الحدوث » عند الموحد العارف هو ظهوره تعالى فى الصور المختلفة بالتجليات المتعاقبة غير المتكررة .

توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلهـــا الواحـــد

فلا نطق ولا رسم ولا فعل إلا بالاستعارة والقرض من الله ولكن الناطق فى ذاته باطل وعدم فى الحضرة الأحدية .

توحيـــده إيـــاه توحيده ونعت من ينعته لاحـــد

أى أن التوحيد الحق هو توحيد الله ذاته بذاته .

° ° °

كيف كان الخلق على الترتيب ؟

ومن هو أول مخلوق خلقه الله . . ؟

يقول العارفون إن أول ما خلق الأحد خلق الواحد فضرب مثالا للأحدية بالواحدية (وكل ما خلق الله مجاز وتمثيل إذ لا حق غيره هو) .

ويعبرون بلغتهم الإشارية الرمزية عن هذا الخلق الأول قائلين :

لما شاء الحق تعالى من حيث أسمائه الحسنى أن يرى أعيانها فى كون جامع يحصر الأمر كله ويظهر به سره خلق الواحد . .

فالواحد إذن هو الذى ستتجلى فيه جمعية الأسماء والصفات . . وقد اختلفت تسمية هذا الواحد بين الصوفية والفلاسفة . . فقال الصوفية هو النور المحمدى وقالوا هو الحقيقة المحمدية وقالوا هو الخليفة وقالوا هو ظل الله وقالوا رمزاً هو القلم (الذى سيسطر كل شىء وتسيل منه كل الكلمات) وأشاروا له بأوصاف . . مثل . . جوهرة الكنز اليتيمة . . وشمس التجليات . . وفرد الذات . . والبرزخ الجامع . .

وأشاروا إليه بالحروف فقالوا هو (سٓ) السر الصادر عن (م) الأمر .

وقالوا هو الإنسان الكامل .

وقال الفلاسفة هو العقل الكلى .

وقالوا هو التعين الأول .

وحجة الصوفيين الذين قالوا إن أول ما خلق الله النور المحمدى

أو الحقيقة المحمدية . . هى الكشف والعلم اللدنى والحديث الشريف والقرآن .

وفى الحديث الشريف للصحابى جابر .

« أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » .

وفى رواية أخرى .

« أول ما خلق الله نورى » .

وفى حديث آخر صحيح .

« كنت نبياً وآدم يجدل فى طينته » .

وفى القرآن يقول الحق تعالى لرسوله :

« وما أرْسلْناكَ إلَّا رحْمةً للْعالَمين » .

(الأنبياء : ١٠٧)

وفى كلمة العالمين إطلاق فى الزمان والمكان .

كما يقول له أيضاً :

« فكيفَ إذا جئْنا منْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ وجئْنا بِك علىَ هؤلاء شَهيداً » .

(النساء : ٤١)

فجعله شاهداً على جميع الأمم من بعده ومن قبله وهذا لا يكون إلا بوجود له سابق ممتد وحضرة سابقة لها مشهد دائم .

وهو أمر لا غرابة فيه . . فقد أمهل الله إبليس وهو رسول الشر حينما طلب إبليس منه الإمهال قائلا :

« ربِّ فَأَنْظِرْنى إلىَ يَوْمِ يُبْعَثُون » .

(الحجر : ٣٦)

فأجابه إلى طلبه وقال له :

« فإنَّكَ مِنَ المُنْظَرِين . إلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُوم » .

(الحجر : ٣٧ ، ٣٨)

وبذلك جعل له وهو رسول الشر حضرة دائمة إلى يوم القيامة ، فلا غرابة أن يجعل لمحمد عليه الصلاة والسلام وهو رسول الرحمة حضرة دائمة .

بل هو الأمر الطبيعى الذى لا يرفضه العقل ولا تأباه الشريعة على اعتبار أن الحضرة السابقة للنبي عليه الصلاة والسلام كانت حضرة نورانية روحية بمثل ما كانت حضرة إبليس حضرة ظلمانية ، وباعتبار أن كليهما عبد الله لا تخرجه عن عبوديته هذه الديمومة .

والشهداء لا يموتون ولا يصح أن نقول إنهم قتلوا فهم أحياء عند ربهم يرزقون . والصديقون والأنبياء أعلى من الشهداء رتبة . . وخاتم الأنبياء هو أعلى الكل وسيد الخلق فحياته الدائمة وحضرته الروحية بين يدى ربه أولى .

وهذا التعظيم للرسول عليه الصلاة والسلام لا تحظره شريعة طالما أنه لا يدعى له ربوبية ولا يخرجه عن عبوديته وعن كونه مخلوقاً لله . . وهو ما اتفق عليه الكل فهو العبد الكامل والمخلوق الأول الذى لا يتجاوز حـدود عبوديته وافتقاره قيد شعرة ثم حجة الحجج وبرهان البراهين عندهم فى النهاية هو الكشف وشهود الأمر على ما هو عليه ورؤية هذه الحضرة المحمدية وتناول الفتح منها (باعتبارها البـاب إلى رضى الله ونوره) .

« قُلْ إِنْ كُنْتُم تُحِبُّون اللهَ فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكم .
(آل عمران : ٣١)

« مَنْ يُطعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطاع الله » .

(النساء : ٨٠)

ويذكر القرآن الخمسة الصفوة من أولى العزم من الرسل فيجعل محمداً عليه الصلاة والسلام أولهم فيقول له :

« وإِذْ أخَذْنا مِنَ النَّبِيِّين مِيثاقَهُمْ ومِنْكَ ومن نوحٍ وإبْراهِيمَ ومُوسَى وعِيسَى ابْنِ مَرْيم وأخذنا مِنهُم مِيثاقاً غَلِيظاً » .

(الأحزاب : ٧)

« إِنَّا أوْحَيْنا إلَيْكَ كَما أوْحَيْنا إلَى نُوحٍ والنبيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » .

(النساء : ١٦٣)

ويقول القرآن آمراً الناس بالعمل :

« وقلِ اعْمَلُوا فَسَيرى اللهُ عَمَلَكم ورَسُولُه والمؤْمنونَ وستُرَدُّونَ إلَى عالم الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلونَ » .

(التوبة : ١٠٥)

ومعنى ذلك أن رؤية الرسول والمؤمنين للأعمال وشهود الرسول لما سوف يجرى فى أمته هو أمر حادث وقائم فى الدنيا لأن الآية تتكلم بعد ذلك عن البعث فتستطرد مردفة :

« وستُرَدُّون إلَى عالم الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئكم بِمَا كُنْتُم تَعمَلُون » .

(التوبة : ١٠٥)

فالرؤية الأولى غير تلك الرؤية . .

وهى إشارة إلى رؤية حاضرة وشهادة حاضرة للرسول عليه الصلاة والسلام . . من قبل البعث ومن قبل أن يقوم الأشهاد .

والرسول عليه الصلاة والسلام حاضر فى الرؤيتين . . وشاهد فى الرؤيتين .

وهذا يدل على مقامه العظيم فى الدنيا والآخرة وقد جاء فى صريح القرآن .

« إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ على النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا صَلُّوا عليهِ وسَلِّموا تَسْلِيماً » . (الأحزاب : ٥٦)

ونعود إلى ترتيب الخلق فنقول إن أول ما خلق الله هو النور المحمدى عند الصوفية وعند الفلاسفة العقل الكلى ثم يلى ذلك خلق النفس الكلية (ويشار إلى العقل الكلى والنفس الكلية بالقلم واللوح) ومن العقل الكلى والنفس الكلية تأتى الطبيعة السارية فى الموجود (الهيولا عند أرسطو والنفس الرحمانى عند الصوفية) ثم من ذلك النفس الرحمانى السارى تتولد الكلمات الإلهية فتتجسم الأشياء فوراً وفق الكلمات على مثال كن فيكون ، فيظهر الجسم الكلى للكون فى البداية وهو الهباء أو الدخان ثم يظهر العرش ثم الكرسى ثم تنفصل الأفلاك ثم العناصر ثم المولدات من نبات وحيوان ثم الإنسان وهو آخر ما يظهر فى سلسلة المخلوقات بالكلمة والجسد . وهو برغم ذلك أول ما خلق فيها بالروح وهو ما أسميناه فى البداية بالواحد أو الإنسان الكامل .

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سافِلِين » . (التين : ٤ ، ٥)

والإنسان عند العارفين هو جمعية ملخصة للوجود كله فهو مثل الكتاب الجامع والكون أشبه بصفحات ذلك الكتاب مفرقة فنحن نجد فى الإنسان عقلاً جزئيًا فى مقابل العقل الكلى الكونى كما نجد نفساً جزئية تقابل النفس الكلية الكونية . . ثم دماغه يقابل العرش وصدره يقابل الكرسى وأعضاؤه والحواس التى تدبرها تقابل الأفلاك والأبراج والملائكة التى تدبرها .

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحـد

ويقول الشاعر الصوفى :

كل الجمال غدا بوجهك مجملا

لكنه فى العالمين مفصـــل

وللصوفيين فى ذلك شطحة . . فهم يقولون :

بمثل ما تكون تعلقاتك فى الدنيا تكون تعلقاتك فى الآخرة فإذا عشت عبداً لأعضائك وحواسك وشهواتك ولم تستطع الخلاص من أسرها فمصيرك فى الآخرة أن تقع فى أسر الأبراج النجمية والملائكة المدبرة لها (وهى الزبانية التسعة عشر التى ذكرها القرآن) حيث تخلد أسيراً لنيرانها أبداً . . لأن إزالة التعلقات بعد ضياع الآلات (بعد الموت) من المحالات .

والأبراج وملائكتها المدبرة هى التى تقع فى مقابل الأعضاء وحواسها المدبرة فى الكتاب الجامع الملخص الذى اسمه الإنسان .

وكل حقيقة فى الدنيا تقابلها حقيقة فى الآخرة . . هنا أنهار وهناك أنهار ، هنا فواكه وهناك فواكه . . هنا مآكل ومشارب وهناك مآكل

ومشارب . . هنا نار وهناك نار . . مع فارق شاسع وأى فارق .

« ومَنْ كانَ فِي هٰذِهِ أعْمَى فَهُو فِي الآخِرةِ أعْمَى وأضلُّ سَبيلاً » .

(الإسراء : ٧٢)

والتفاوت فى المراتب هنا يقابله تفاوت أكبر هناك .

« وللآخرةُ أكْبَرُ دَرَجاتٍ وأكْبَرُ تَفْضِيلا » .

(الإسراء : ٢١)

ثم التناظر بين الإنسان والكون والتقارن بين الدنيا والآخرة وتقابل الحقائق بين الذرة والمجرة وتشابه المناظر بين الخلية فى ورقة نبات والخلية فى قلب سبع . . وسبب هذا التشاكل العجيب أنها جميعاً تجليات ذات إلهية واحدة وصناعة قدرة إلهية واحدة .

وكل هذه المراتب الوجودية هى فى المصطلح الصوفى والقرآنى ظهورات أو تجليات أو تنزلات أو خلق أو إبداع من المبدع صاحب الكنوز التى لا تنفد . . الذات الإلهية الملفعة بغيب الغيب .

وظهور الله عند الصوفية هو عين اختفائه لأنه جعل من هذه المظاهر المتعددة حجاباً على وحدته كما جعل من الأسباب والقوانين حجاباً على مشيئته . . كما جعل من ملوك الأرض الصوريين حجاباً على حاكميته الحقيقية .

يقول المكزون السنجارى عن هذه الذات المبدعة الملغزة .

هى التى باختفائها ظهرت وكان عنـا السفور يخفيها

وحجب الكثرة تحجب عين الغافل ولكنها تشف وتشف عن الأحدية الباطنة فيها أمام عين العارف الذاكر .

وعدم البعث واستمرار الموت عند المكزون أمر محال على الله بحكم كرمه وجوده ، فالكريم لا يسلب هبته ولا يسترد عطيته أبداً . . وإذا استردها فليعطى أعظم منها . . فما أخرجه الله من العدم بجوده وكرمه يستحيل أن يرجعه عدماً .

فناؤنا مع بقاء واهبنا يقضي بنكث الكريم فى هبته
وذاك بخل وجل خالقنا عن أن يكون التقتير فى صفته
وهو محال على الإله الذى كل لبيب زكا بمعرفته

وهذا هو حسن الظن بالله الجدير بالمؤمن حقًّا .

ولأن الفاعل المطلق (الله) لا بد له من قابل مطلق (الكون والمخلوقات) . . والوجود لا بد له من مجال عدمى يعمل فيه . . يقول ابن عربى فى غرور ودلال عجيب متحدثاً عن ربه .

فأعطيناه ما يبدو به فينا وأعطانا
فصار الأمر مقسوماً بإياه وإيانا

فيجعل نفسه مقاسماً لربه فى عملية الخلق وهى شطحة فيها دلال ولا شك أن هناك تعدداً ملحوظاً للخالقين . . فالموسيقار يخلق والنحات يخلق والمهندس يخترع والمسيح يصور من الطين كهيئة الطير وينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ، والملائكة تبدع والأسماء الإلهية تصور ، فهناك تعدد للخالقين ولكن الكل يخلق بقدرة الله وإذنه وإلهامه . . والله فوقها جميعاً وأحسنها جميعاً وهو بذاته القوة المبدعة فيها .

« فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنَ الْخالِقِين » .

(المؤمنون : ١٤)

فاعترف القرآن بتعدد الخالقين ولكنه قال إن الله أحسنها . . لأنه يخلق بذاته دون حاجة إلى إلهام من أحد أو إذن من أحد ولأنه يخلق على غير مثال سبق . . بينما الكل يخلق من نموذج أو تعليم أو فكرة مستوحاة ويخلق من مادة مخلوقة سلفاً . . ثم إن الكل مستمد منه لا يخلق إلا به . أما هو فهو الوحيد الخالق بذاته المستغنى بذاته فلا تجوز هذه الشطحة من ابن عربى بأن الله (الوجود) محتاج إلى العدم أو أنه مقاسم للعدم فى عملية التكوين فتلك شطحة خرجت من ابن عربى الشاعر وليس من العارف .